الملتقى الدولي:

تجديد التفكير الديني في الإسلام -محمد إقبال نموذجا-

تاريخ الملتقى:

يومي 15- 16 أفريل 2025م

بكلية أصول الدين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

عنوان المداخلة:

المنهج التجديدي في خطاب محمد إقبال

بقلم: أ.د/ عبد الرزاق قسوم

عضو مجلس أمناء

الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل:

تهنئة من الأعماق إلى القائمين على جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، هذا المعلَم الثقافي الشامخ، الذي ظل منذ نشأته، يشعّ على أمتنا، بالفكر النيّر، والمنهج الخيّر، لبناء الإنسان المسلم المغيِّر.

إن إقامة ملتقى دولي علمي، في يوم العِلم، وحول عالِم وهب حياته لأمته الإسلامية، وبذل عصارة فكره، لإبراز الجوانب المضيئة في خطابنا الإسلامي، وهو الفيلسوف محمد إقبال، يمثل منقبة في تاريخ هذه الجامعة.

فالحديث عن محمد إقبال، الشاعر المفكر الذي سما بالفكر الإسلامي إلى مستوى الكونية، وأبرز كنوز العقيدة الإسلامية، إلى حد جعل أقطاب العالَم، على اختلاف قناعاتهم، يقفون مشدوهين أمام عظمة الإسلام، وصلاحيته لإضاءة حياة الإنسانية، والنأي بها عن الحرب، وكل مظاهر العنف، إلى كان في الحب، والسلام، والوفاق، إن الحديث عن هذا المفكر العظيم، ذو شجون، ولا يمكن لأي باحث، مهما أوتي من بلاغة وعبقرية، أن يُلمّ بجوانب النبوغ والعبقرية في شخصيته.

ففيلسوفنا، موضوع هذا الملتقى، لئن لم يحظى بالهالة التي حظي بها مواطنوه من أمثال الشيخ الندوي، والشيخ أبي الأعلى المودودي، داخل الفضاء الإسلامي، فهو قد تجاوز في صيته، النزعة المحلية، إلى النزعة الكونية، انطلاقا من العالمية الإسلامية، في مواجهة نظريات العولمة، وصدام الحضارات، ونهاية التاريخ، وغيرها.

قال عنه أقطاب الفكر الإسلامي، أنه نابغة من نوابغ الشرق، كما وصفه الدكتور طه حسين، عميد الأدب العربي، وقال عنه المفكر الدبلوماسي عبد الوهاب عزام: "أنه فيلسوف مبدع، ينفخ الحياة في الموات، ويبعث في القفر ألوان النبات، ويشعل الجمر الخامد في الرماد الهامد، له نظرات في التصوف، وله فلسفة في النفس"، ويقول عنه المفكر الموريتاني الدكتور محمد مختار الشنقيطي: "كان إقبال اعجميا، ذا لحن حجازي".

إن هذه العينات، من مشرق الأمة الإسلامية ومغربها، لتلتقي كلها، على تحديد جوانب العظمة في شخصية محمد إقبال، ومدى امتداد هذه العظمة، في التعريف بالإسلام لدى جهابذة الفكر الإنساني، من أمثال كانط، ونيتشه، وبرغسون، وغيرهم.

1- ينابيع وخصوصيات خطاب محمد إقبال:

تتجلى عظمة شخصية محمد إقبال، وإبداع فكره الفلسفي، في تنوع الينابيع المعرفية التي استقى منه فلسفته.

فقد نهل الشاعر الباكستاني المبدع من الثقافة الهندية، والثقافة الفارسية، والثقافة الألمانية، والثقافة الإنجليزية، ليؤسس لهذه الينابيع كلها، ينبوع الثقافة الإسلامية، التي تظل هي النبع الأساس.

فمن خصوصيات فكر محمد إقبال، تأصيله للتجديد انطلاقا من القرآن.

فهو يستعرض كل قضايا الفكر الكوني الإنساني، على شاشة القرآن، ليستخلص العلاج لكل أمراض الكون.

فالخطاب الإسلامي، يمثل الثبات، بينما الحداثة الغربية تمثل التغيير، ولذلك يصدر الفيلسوف المسلم حكمه على الحداثة الغربية بأنها أخفقت في عالم السياسة عندما رجحت

المتغير على الثابت، بينما رجح العالم الإسلامي الثابت على المتغير، فالمسجد بيت للناس، بينما الكنيسة معبد للرب.

إن كل محاولة لاستنباط خصوصيات أو مقومات فكر محمد إقبال، يجب البحث عنها في تأصيله للتجديد انطلاقا من القرآن، ومن خلال ذلك، نستشف انعكاساته على دواوين شعره، ومختلف ألوان إنتاجه.

غير أننا نجد للقرآن، وضعا خاصا في فكره، ذلك أن والده، وهو الصالح المصلح، قد نصحه عندما رآه منكبا على القرآن في محاولة لحفظه، وفهمه، فقال له: "اقرأ القرآن، يا بني، كما لو أنه قد نزل عليه، إذا أردت أن تفهمه فهما جيدا".

2- إشكالية المصطلح في فلسفة إقبال:

لقد أفضت منابع المعرفة، عند الشاعر الفيلسوف محمد إقبال، إلى إفراز مصطلحات هي بمثابة المفاتيح، لفك رموز وألغاز فكره.

ومن هذه المصطلحات مصطلح الذاتية، وخودى، ومصطلح جواد، يمعنى الخلود، مصطلح الصلصلة، بمعنى الجرس، إضافة إلى مصطلح الوطنية، والقوى، والتصوف، والسكر، والصحوة، ووحدة الوجود، وغيرها كثير، وكلها تحيل إلى فلسفة معنى ذات أبعاد حضارية كونية.

إن ما يستوقفنا في مفهوم المصطلح عند محمد إقبال، هو تدقيقه وتعميقه في ضوء التأصيل الإسلامي، وصياغته ليكون المنهج الصالح لتجديد واقع الأمة الإسلامية، ومحاولة بعثها في رحلة إلى الحياة.

وفي هذا السياق، فهو يحاور دعاة الخطاب الإسلامي، كالمتصوفة، والفقهاء، وعلماء الكلام، كما يجادل فلاسفة الغرب في تعريفاتهم لمفاتيح الحضارة كالوطنية، والأمة، والقوة، والإنسان، وفلسفة الذات، ومكانة المرأة، وغير ذلك، من المصطلحات التي تخفى، مفاهيم ذات أبعاد حضارية كونية مبرزا الفرق بين مفهومها الإسلامي ومفهومها الغربي.

3- نماذج من فلسفة إقبال النقدية:

أصل محمد إقبال لمراحل الفكر الإنساني انطلاقا من المنظور الإسلامي.

فهو ينهي، في تحديده للزمان عن التعريف الغربي المألوف، وتقدم لنا وضعا جديدا للمراحل الزمنية، التي اجتازها الفكر الإنساني، وهي كما يلي:

1- عصر الطفولة، وهو عصر ما قبل الإسلام، أو عصر الجاهلية، كما هو مألوف.
2- عصر البلوغ أو عصر العقل، أي إلغاء الكهانة، والصنمية، وإعادة الاعتبار للعقل.
3- عصر الخاتمية، وهو ختم الديانة وختم النبوة.

ثم يعمد الفيلسوف المسلم إقبال، إلى نقد أساطين الحداثة الغربية، فيعمد إلى المثالية الإيمانية، لأنها كما يقول، نقوم على الأنا المتعصب، كما يتجلى ذلك عند نيتشه.

كما انتقد المقولات الكانطية، لأنها تنطلق من الثنائية، بعكس ما يدعو إليه إقبال، وهو الذاتية، بمفهوم الإنية، إذا حاز لنا أن نستعير من مولود قاسم مصطلحه في الإنية والأصالة.

كما هاجم محمد إقبال، باروخ سبينوزا، في نقده للدين، ومعناه أنه هذا المنهج النقدي للدين، لا يمكن أن ينطبق على الدين الإسلامي.

أما داخل الفكر الإسلامي، فقد وجه محمد إقبال سهامه إلى المتصوفة.

وبتحليلنا لموقف إقبال من التصوف نجده يقسم التصوف إلى نوعين: التصوف البدعي والتصوف السني.

فالتصوف البدعي، يصف أصحابه بأنهم مبتدعة، يهيمون بالشطح، والصياح، وينادون بالسلام، فهم طلاب دنيا.

ويرد عليهم بأن الإسلام يدعو إلى الصحوة، وإلى اليقظة، لا إلى السكر، والغيبوبة، كما يقول بأن الإسلام دين التوحيد، لا وحدة الوجود، ويأخذ كمثال لهذا النوع من التصوف، أكمل ذات تطمح إليها الذات الإيمانية، ويوضح ذلك بقوله: ولكن يقوم سلطان الله في الأرض، يجب أن تقوم فيها جماعة بتوحد أفرادها، ويقوم على هذه الجماعة واحد، يمكن أن يسمى نائب الحق أو الإنسان الكامل.

فالإنسان في المنهج التجديدي عند إقبال يمثل مركز حياة مستقل، قائم بنفسه، ولكنه لما يبلغ مرتبة الكمال. وتنقص فردانيته بقدر بعده عن الخالق.

وهكذا يكون الإنسان الكامل هو الأقرب إلى الله، غير أن هذا لا يعني فناء وجود الإنسان، في وجود الله، كما يقول فلاسفة الإشراق، بل هو ممثل للخالق في نفسه، بمعنى أن الإنسان الحقيقي لا يضل في الكائنات، بل تضل الكائنات فيه، أي تكون هذه الكائنات في خدمته، فيتصرف هو فيها.

ويستنبط محمد إقبال، في ضوء هذه الأحكام حقيقة هامة، هي أن الحياة حينما تتجلى في الإنسان تسمى ذاتا، أو "خودى" بمصطلحه، وهذا معناه أن ذاتنا هي معيار الخير

والشر، أي هي مقياس الجمال؛ وفي هذا التحديد للذات، يأتي مفهوم الزمان، والمكان، وعلاقتهما بالخلود.

وفي فلسفته لكمال الذات الإنسانية يضع محمد إقبال ثلاثة مراحل هي:

1- إطاعة القانون الإلهي.
2- ضبط النفس.
3- النيابة الإلهية أو الخلافة عن الله، وهي إكمال ذات تطمح إليها الذات الإنسانية.

تنزيل المنهج التجديدي الإقبالي، على واقع الناس:

تنازع الباحثون والمفكرون في فلسفة إقبال واختلفوا، فقد استحسنها بعضهم وعدوها خطوة هامة في تحقيق تعميق العقيدة الإسلامية، واعتبروها قاعدة صلبة للتعايش الإنساني.

بينما ناصبها العداء، قوم آخرون، وعدوها دعوة لمحو التصوف، لأن منهجها يناهض الدعوة إلى اتقاء الله، أليس هو القائل: "أحكم نفسك في حضرة الله، ولا تفن في بحر نوره".

وفي هذا السياق جاء رفضه كما أسلفنا لمفهوم وحدة الوجود، لأن التوحيد على حد تعبيره، مصطلح ديني محض، وليست وحدة الوجود من تعاليم القرآن، ويدلل على هذا بأن التصوف [بمفهوم وحدة الوجود] ظهر في زمان التخلف السياسي للمسلمين.

ولم تخل فلسفة محمد إقبال، من الإعجاب الشديد من بعض الأقطاب في الأمة الإسلامية، على غرار الزعيم مولانا محمد علي، الذي وصف محمد إقبال، بأنه محيي الأمة الإسلامية، وباعث دعوتها إلى اكتشاف الذاتية، وإثبات وجودها.

وأشباه الزعيم مولانا محمد علي كثر، سواء داخل الأمة الإسلامية، أو داخل الفكر الفلسفي الإنساني.

وبتأملنا الدقيق والعميق لفلسفة محمد إقبال، يمكن وصفها بأنها فلسفة الذات، وهو وضع لفلسفة الذات هذه، دعامة أساسية هي: التأليف بين الفرد القوي أو الذات الكاملة، وبين الجماعة التي يعيش فيها هذا الفرد، ومن هذا الارتباط القوي من الفرد والجماعة تنشأ الأمة.

ويدلل محمد إقبال على استنتاجه، بأن الذات الكاملة لا ترقى –حسب منهجه- ولا تكتمل إلا في الجماعة، وبالمقابل فإن عمل الجماعة يكمن في تمكين الفرد من بلوغ كماله، بإظهار كوامن فطرته، ومنتهى قدرته.

وتستوقفنا في فلسفة إقبال، تأكيده على مصطلح الأمة، الذي خالف به المفاهيم الغربية.

فهو يتميز بإعطاء خصائص للأمة يكاد ينفرد بها، وهذه الخصائص هي:

1- أن الوطن ليس أساس الأمة.
2- المقصود بالأمة هنا، الأمة المحمدية التي لا يحدها زمان، ودوامها موعود.
3- أن نظام الأمة لا يكون إلا بالقانون، وقانون أمة محمد هو القرآن.

كما أن نضج هذه الأمة يكون بإتباع الشريعة الإلهية، وأن حسن سيرتها يكون بالتأدب بالآداب المحمدية، كما أن مقصد الأمة المحمدية إنما يكون بحفظ التوحيد ونشره.

وهناك إبداع آخر، يستوقفنا في فكر محمد إقبال، هو ربطه بين الأمة والأمن، فيشير إلى عامل هام في حياة الأمة، وعلو بقاء النوع البشري الذي لا يكون إلا بالأمومة؛ وحفظ الأمومة وتبجيلها، من قواعد الإسلام.

لذلك وجدناه يتوجه بخطاب المسلمات فيقول:

يا أمينة على الشرع المبين إن في أنفاسك حياة الدين

ووعيا منه لما تلاقيه المرأة من عناد في عصرنا اليوم، يتوجه لها بخطاب يقول لها فيه:

لا تسلكي إلا سبيل الإباء ولا تبالي، بما تلقين من عناء

الخاتمة:

ماذا عسانا نستفيد –في قراءتنا المعاصرة- لفكر محمد إقبال، من معاني يمكن أن تصلح النهوض بأمتنا، التي عمل فيلسوف الباكستان على نوعيتها، بتخلفها، وتقديم فكره إليها للنهوض بها من كبوتها؟

إن جوانب النبوغ والإبداع، والأصالة في فكر محمد إقبال كثيرة، ومتنوعة الينابيع والمقاصد.

فقد أبان فيلسوفنا، عن عبقرية، في الذات وفي الملكات، وفي الغايات.

فقد نشأ في بيئة قرآنية، صقلته على القرآن، وغدته منذ الصبا، بحلاوة الإيمان، فنشأ مسلما صلب العقيدة، فولاذي الإرادة، إسلامي المقصد والريادة.

ومن نقاط القوة أيضا في فلسفة محمد إقبال أنه غاص في الفكر الفلسفي بجميع أطواره، من اليوناني القدير إلى الغربي المعاصر، فاستبطئ كنهها، ولكنه لم يذب في دهاليزها، بل على العكس نقدها، من داخل مكوناتها.

قام محمد إقبال بتصحيح مفاهيم مغلوطة كثيرة، ظلت سائدة في عصرنا، مثل مفهوم الوطن، والأمة، والقوة، والأنا، فتصدى لها بعلم، وبمنهج، منطلقا في كل ذلك من الفهم الصحيح للإسلام.

فقد بيّن كيف أن مفهوم الأمة بالمنظور الإسلامي، يقوم على فهم صحيح، وهو العناية بالفرد الكامل الذات، لإيجاد المجتمع الفاضل الذي به يمكن الربط مع الأمة، التي تختلف في الفهم الإسلامي عن الفهم الغربي.

كما رد على بعض فلاسفة الغرب من أمثال المستر دكسن، الذي أخذ على محمد إقبال دعوته إلى القوة المادية، وبالغ في تعظيمها.

يقول محمد إقبال، أن هذا غلط محض، فأنا أدعو إلى القوة الروحية، وأوضح ذلك بأن محاربة أمة ما لأمة أخرى لحماية الحق، والخير، هذا فرض عليها، ولكن أن تكون محاربتها لأجل جوع الأرض فقط، فهذا حرام.

وعاب بعض الغربيين على محمد إقبال أن فلسفته تخاطب المسلمين فقط، وأنه حاول تطبيق فلسفته عليهم وحدهم.

ويعترف إقبال بأن الشعر والفلسفة ينبغي أن تكون لهما مقاصد إنسانية عامة، ولكن هذه المقاصد إذا أريد تحقيقها في مجال الحياة، لابد من تحقيقها أولا في جماعة معينة لها مسلك معين، ومذهب مستقل، وتتسم منهجيتها بالدعوة والتبليغ إلى غير نهاية، وهذه الجماعة هي الأمة الإسلامية.

فالإسلام كما يقول إقبال، عدو لعصبيات الألوان والأجناس، وهذه العصبيات هي أصعب العقبات في سبيل اتحاد الأمم.

فالتعلم الإسلامي لا يخص قبيلا دون قبيل، بل هو يدعو الناس جميعا إلى التعاون والتآخي، كما أن سلطان الله على الأرض، لا يخص المسلمين، بل يعم الناس جميعا.

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ هو مفتاح الخطاب الإسلامي، والدليل على ذلك أن القرآن ليس كتاب فلسفة أو الإلهيات، ولكن فيه هدي إلى مقاصد الحياة، ورقيها، وفيه أصول فلسفية تقنية.

فما أشد أسفي بجهل أهل الغرب بالإسلام، والفلسفة الإسلامية !

هذه –إذن- قبسات من فكر هذا الفيلسوف الإسلامي، الداعية المصلح محمد إقبال، وقد حاولنا الاقتصار على عينات ونماذج منها، وأملنا، أن نوجه الباحثين من الشباب الجامعي، إلى التعمق أكثر في فلسفته للتزود بأصول المنهج، وقواعد الفهم للإسلام في صفائه، وعمقه، ونقائه، وواقعيته.

والله من وراء القصد.

مراجع البحث:

دوادين:

1- صلصلة الجرس "بانكادرا"، عام 1924.
2- "أسرار خودي ورموز بي خودي" ومعناها أسرار الذاتية ورموز نفي الذاتية، عام 1915.
3- "جاويد تامة"، ومعناها الكتاب الخالد، عام 1932.
4- عبد الوهاب عزام: "محمد إقبال: سيرته وفلسفته؛ وشعره"، القاهرة، دار العلم العربي، عام 2023.